لقمة عيش

ساعتان بالضبط مَرَّتَا عليَّ وأنا أقف لألاحظ حركة عدد من بائعي المنتجات، والأطعمة من عربة لأخرى في محطة جامعة القاهرة. سألت فتاة لا يتعدى عمرها الـ 12 ربيعًا، تحمل في يدها شنطة صغيرة بها ثلاثة «باكيتات» مناديل، عن سبب خروجها للعمل بهذه المهنة.

أجابتني الفتاة بنبرة ممزوجة باليأس والأسى والمرارة، قائلة:

- هو انت من الشرطة؟

قلت:

- لا والله يا ابنتي.

فقالت:

- طيب إنت بتسأل ليه؟ خليك في حالك، وبلاش تعطلني، أحسن ماما تضربني لو ما سلمتهاش المعلوم زي كل يوم.

قلت لها:

- حاضر يا ست البنات، ولا يهمك.

ثم أعطيتها ما جادت به نفسي، وذهبت إلى حال سبيلها.

بعد مرور حوالي 10 دقائق، وقعت عيني على ثلاثينية، تحمل في يدها شنطة أنيقة، بها أدوات مكياج. سألتها عن الدافع خلف عملها بالمترو رغم المخاطر التي قد تتعرض لها، سواء من الباعة أو من شرطة المترو.

فأجابت:

– على فكرة بقى، أنا خريجة ليسانس آداب قسم لغات شرقية، وهو القسم الذي اكتشفت بعد دراسته أنه لا يوفر أي عمل لصاحبه بعد التخرج، فعملت بمحل لبيع إكسسوارات البنات والمكياج. ولأن الأحوال بعد الثورة أصبحت سيئة للغاية؛ فكر صاحب المحل في بيع المنتجات داخل المترو؛ نظرًا للتجمع النسائي اليومي الهائل داخله، ومن ثم تكون فرص البيع أكبر. ولأن الشغل «مش عيب» وافقت، وبالفعل والحمد لله أحقق مكسبًا لا بأس به.

وتكمل «البائعة» والأسى قد ارتسم على وجهها، ودموعها توشك على النزول:

– لكني أعاني الأمرَّيْنِ من متسولي المترو الذين يحاولون فرض الإتاوات على كل البائعات، إلى جانب شرطة المترو التي تطاردنا كالمجرمين والحرامية، على الرغم من أننا مكافحات نجري وراء لقمة العيش، فنحن نبيع منتجات تباع في كل المحال، ولا ننصب أو نسرق حتى نُطارَد بهذا الشكل المُهين.

وتتساءل:

– لماذا لا يحاولون تقنين عملنا في المترو، من خلال تصريحات تسمح لنا بممارسة هذا العمل، ومن لا يحمل التصريح هو الذي يستحق المطاردة والحبس؟

أجبتها بأن هذا القرار متروك لإدارة المطار، ولعلهم يتخذون فيه خطوة جادة.

فيما اشتركت بائعة أخرى منتقبة في الحديث، وسألتني من واقع خبرتها الطويلة في العمل بالمترو:

- هل أنت صحفي؟

أجبتها بـ«نعم».

عندئذٍ اطمأنت، وبدأت تحكي لي بعض همومها، فقالت:

- أنا موظفة حكومية، وزوجي كان موظفًا أيضًا، وتوفي تاركًا لي أربعة أبناء في مراحل تعليمية مختلفة، ومعاش زوجي مع مرتبي لا يكفي تعليمًا وأكلاً وملابس ودروسًا؛ لذلك لجأت لهذا العمل، فدخلت «جمعية»، واشتريت هذه البضائع من إيشاربات وملابس حريمي، وأخرج من عملي الحكومي إلى عملي الخاص في المترو، وارتديت النقاب حتى لا أصادف أحدًا من زملائي في العمل، أو أقاربي، أو أصدقاء أبنائي، وأعود للمنزل آخر النهار؛ لأتابع مذاكرة أبنائي.

وبحسرة وألم تسألني ذات السؤال:

- لماذا تطاردنا شرطة المترو، وتستولي على بضائعنا وكثيرًا ما تأخذ ما معنا من مال؟! لماذا لا يسمحون لنا بالبيع في داخل العربات وخرجها طالما أننا لا نؤذي أحدًا؟!

فكانت إجابتي عليها، بنفس الكلمات التي ذكرتها لسابقتها.

وقبل أن أذهب إلى حال سبيلي، فوجئت بسيدة أخرى أربعينية، تحمل في يدها بضاعة أيضًا، ويبدو عليها الإرهاق والشقاء.

سألتها:

- ماذا تبيعين حتى أشتري منك؟

قالت:

- أبيع إكسسوارات بناتي وحريمي في منتهى الروعة.

أعطيتها 30 جنيهًا ثمن أشياء جميلة حقًّا، بعد ذلك سألتها عن سبب امتهانها لهذا العمل، فأجابت:

- أنا حاصلة على دبلوم تجارة، ومطلقة، وعندي بنتان، حاولت العمل في أماكن كثيرة، لكن كانت الرواتب زهيدة جدًّا، لا تعينني على تربية البنتين، خاصة أن والدهما رماهما، وتزوج أخرى، ويرفض حتى رؤيتنا؛ لذا نصحتني إحدى صديقاتي بفكرة البيع في المترو، وبصراحة أقرضتني مبلغًا من المال؛ لأشتري به أول بضاعة، وبالفعل اشتريت من الموسكي كمية من إكسسوارات السيدات، وبدأت عملي في المترو.

واستطردت:

- أعمل مع انطلاق أول قطار، حتى الساعة السادسة مساء، ثم أذهب للعمل في عيادة مسائية بجوار البيت، ثم أعود لابنتَيَّ اللتين أتركهما مع أمي الفقيرة التي أنفق عليها وعلى علاجها أيضًا، وأعاني ويلات شرطة المترو التي تهينني وتسمعني أقذع الشتائم، ويأخذون بضاعتي وأموالي أيضًا، وكأنني أسرق الراكبات، وأنا المسروقة لا السارقة، سرق الزمن عمري!

وقبل أن يذهب كلانا إلى وجهته، قلتُ لها:

- لا يجب أن نظلم رجال الأمن، لأن لديهم تعليمات بمواجهة أي أمور قد تسبب الإزعاج للركاب، وبدل أن نلومهم، يجب أن نشكرهم.. انتهى.